

الهوية المقموعة- هيمنة المركز وتشظي الهوية

ماهر حميد عبد

جامعة البصرة - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

Maherhameed974@gmail.com

أ.د. عقيل عبد الحسين

جامعة البصرة - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

akeel.khalf@uobasrah.edu.iq

Repressed Identity - Center Domination and Identity Fragmentation

Maher Hameed Abd

**Basra University - College of Arts - Department of
Arabic Language**

Prof.Dr. Aqeel Abdul Hussein

**Basra University - College of Arts - Department of
Arabic Language**

ملخص:

يواجه الباحث في مسألة الهوية وتمثلاتها في السرد العربي القديم، ولاسيما في العصر العباسي الثالث مشاكل جمة؛ نتيجة لما شهده هذا العصر من تحولات كبيرة أثرت في طبيعة النظام العام، وغيّرت مجرى التاريخ السياسي، والاجتماعي، والثقافي للمجتمع بفعل السلطة وممارساتها، مما انعكس سلباً على الهوية، الأمر الذي أدى إلى تماهي الهويات حيناً، وتلاشيها في أحيان أخرى فأصبحت نتيجة لذلك أكثر ضبابية من سابقتها، فضلاً عن الصراعات القومية والطائفية التي كان من نتائجها ظهور خطابات سياسية، ودينية، وثقافية متصارعة فيما بينها من أجل الاستحواذ على السلطة وفرض الهيمنة على الطبقات الاجتماعية المختلفة، فأسهمت هذه الصراعات بشكل مباشر في إعادة إنتاج السلطة والهوية على وفق التشكيل الإيديولوجي لنظام الخطاب سواء أكان سياسياً أم دينياً أم ثقافياً.

الكلمات المفتاحية: هوية، إيديولوجيا، قمع، عنف، هيمنة، تشظي .

Abstract:

The researcher in the issue of identity and its representations in the ancient Arab narrative, especially in the third Abbasid era, faces many problems. As a result of the great transformations witnessed in this era that affected the nature of public order, and changed the course of the political, social, and cultural history of the society due to the authority and its practices, which negatively affected identity, which led to the identification of identities at times, and their disappearance at other times, and as a result became more blurry. From its predecessor, as well as national and sectarian conflicts that resulted in the emergence of conflicting political, religious, and cultural discourses among themselves in order to seize power and impose hegemony on the different social classes. These conflicts directly contributed to the reproduction of power and identity according to the ideological formation of the discourse system. Be it political, religious or cultural.

Key words: identity, ideology, oppression, violence, domination, fragmentation

مقدمة:

سعى الخلفاء في العصر العباسي إلى فرض هويتهم المتسلطة على الهويات الاجتماعية الخاضعة لهم، بعد تأسيسهم لجهاز المخابرات الذي عمل على مراقبة الخاصة والعامة من أجل استعادة مكانتهم السياسية والدينية والاجتماعية التي فقدوها بفعل سيطرة الآخر واستيلائه على السلطة المركزية في الدولة.

المحور الاول : الهوية المقموعة.

إذ تمثل الهوية من المنظور السياسي للعباسيين محوراً مركزياً، في استعادة السلطة والدولة التي قد تتأسس على هوية مجتمعية موحدة.^(١) إلا أن سياسة الدولة العباسية لم تتمكن من تأسيس هوية موحدة تضم الهويات الأخرى على الرغم من كل الجهود التي بذلتها، فلم تنجح في مساعيها؛ وذلك لأن تفكير الخلفاء لم يكن تفكيراً حراً، وإنما كان خاضعاً للإيديولوجيات السياسية وما تفرضه من أنظمة للحكم تفرض على الخليفة وحاشيته الالتزام بها والعمل بموجبها. وطالما كانت هذه الأنظمة السياسية هي نتاج التفكير الإيديولوجي للعباسيين وأجهزتهم القمعية، فمن الطبيعي أن يجعل منهم حكاماً مستبدين هدفهم هو التمسك بالسلطة بطريقة أو أخرى، فلجأوا إلى إقصاء الهويات المناهضة لهم ولسياساتهم الإيديولوجية سواء أكانت هذه الهويات سياسية أم دينية، ولاسيما بعد أن منحهم مكانتهم الدينية نوعاً من السلطة التي عملوا على توظيفها خدمة لمصالحهم السياسية واستمرارهم في الحكم كخلفاء يستمدون سلطتهم العليا "من الله [تعالى]، استناداً إلى [نظرية الحق الإلهي المباشر؛ لأن الحاكم يستمد سلطته من الله [تعالى]، فهو يحكم بمقتضى الحق الإلهي المباشر... الذي يخوله سلطة مطلقة"^(٢) هذا ما سعى العباسيون إلى تطبيقه والعمل بموجبه لفرض سيطرتهم من خلال هويتهم الدينية المتسلطة استناداً إلى نظرية الحق الإلهي القائمة من وجهة نظرهم الإيديولوجية على إقصاء الهويات الأخرى المخالفة لهم، وقمعها والهيمنة عليها ورفض علو صوتها بأي شكل من الأشكال على صوت الدولة وهويتها المتسلطة على الرغم من ممارساتها التعسفية بحق أصحاب هذه الهويات المقموعة من أجل خضوعهم لهوية الدولة على حساب هوياتهم.

إلا إن سوء توظيف السلطة من قبل العباسيين أدى إلى تقسيم المجتمع إلى فئتين: فئة حاكمة تتولى السلطة السياسية وخاضعة لسيطرة الآخر الأجنبي وتعمل تحت إشرافه المباشر وتصدر القرارات والأوامر وتتمثل بالخلفاء العباسيين الذين لم يبق لهم من السلطة شيء في ظل وجود الهويات الأخرى التي سيطرة على إدارة الحكم وأعطتهم سلطة تشريفية في الدولة، فضلاً عن سلطتهم الدينية التي حاولوا من خلالها فرض هيمنتهم على الفئة الأخرى المحكومة،^(٣) التي تعمل الفئة الحاكمة على إقصائها بهدف إبعادها عن الساحة السياسية وما يدور فيها من صراعات إيديولوجية من أجل الاستحواذ على السلطة، فهي تسعى إلى تقييد خصومها وتحجيم دورهم السياسي حتى يتسنى لها الانفراد بالسلطة، إذ يكمن هدف الفئة الحاكمة في قطع الطريق أمام هذه الفئة المحكومة ومنعها من الوصول إلى سدة الحكم، وبهذا لا يكون لها أي دور في السلطة سوى

إعلان الطاعة والولاء المطلق، فكان من نتائج هذه السياسية ظهور ما اصطلاحنا عليه بالهوية المقموعة. وهذا ما تؤكد هذه الحكاية التي أوردها التنوخي قائلًا: "حدث أبو الحسين عبدالله بن أحمد بن الحارث، قال: حدثني القاضي أبو عمر رحمه الله، قال: لما جرى في أمر ابن المعتز ما جرى، حبست وما في لحيتي طاقة ببضاء وحبس معي أبو المثنى القاضي، ومحمد بن داود الجراح، في دار واحده، في ثلاثة أبيات متلاصقة، وكان بيتي في الوسط.

وكنّا آيسين من الحياة، فكنّت، إذا جئنا الليل، حدثت أبا المثنى تارة، ومحمد بن داود تارة، وحدثاني من وراء الأبواب، ويوصي كلّ منّا صاحبه، ونحن نتوقّع القتل ساعة بساعة.... فما شعرنا إلّا وقد فتح الباب عن محمد بن داود، فأخرج، وأضجع ليذبح، فقال: يا قوم، ذبحاً كما تذبح الشاة، أين المصادر، أين أنتم عن أموالي أفندي بها نفسي؟ عليّ كذا وكذا. قال: فما التفتوا إليّ كلامه، وذبحوه، وأنا أراه من شقّ الباب، وقد أضاء الصحن، وصار كأنه نهار من كثرة الشموع، واحتزوا رأسه، وأخرجوه معهم، وجروا جثته، فطرحوا في بئر الدار، وغلّقت الأبواب، وانصرفوا.

قال: فأيقنت بالقتل، وأقبلت على الصلاة، والدعاء، والبكاء. فما مضت إلا ساعات يسيرة، حتى سمعت أصوات الأقفال تفتح، فعاودني الجزع، وإذا هم جاؤوا إلى بيت أبي المثنى القاضي، ففتحوه، وأخرجوه، وقالوا له: يقول أمير المؤمنين، يا عدو الله، يا فاسق، بم استحلت نكث بيعتي، وخلع طاعتي؟ فقال: لأنّي علمت، أنه لا يصلح للإمامة. فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين، قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر، فإن ثبت ردناك إلى محبسك، وإلا قتلناك.

فقال: أعوذ بالله من الكفر، ما أتيت ما يوجب الكفر. قال: وأخذ يتهوّن معهم بهذا الكلام وشبهه، ولا يرجع عنه. فلمّا أيسوا منه، مضى بعضهم وعاد، فظننت أنّه يستثبت في الاستئذان، قال: ثمّ أضجعوه، فذبحوه، وأنا أراه، وحملوا رأسه، وطرحوا جثته في البئر. قال: فذهب عليّ أمري، وأقبلت على البكاء، والدعاء، والتضرع إلى الله جل وعزّ. فلمّا كان وجه السّحر، وقد سمعت صوت الدباب، وإذا صوت الأقفال، فقلت: لم يبق غيري، وأنا مقتول، فاستسلمت، وفتحوا الأبواب عنيّ، وأقاموني إلى الصّحن، وقالوا: يقول لك أمير المؤمنين، يا فاعل، يا صانع، ما حملك على نكث بيعتي؟ فقلت: الخطأ، وشقوة الجدّ، وأنا تائب إلى الله عزّ وجلّ من هذا الذنب.

قال: وأقبلت أتكلم بهذا وشبهه، فمضى بعضهم، وعاد فقال: أجب، ثمّ أسرّ إليّ، فقال: لا بأس عليك، فقد تكلم فيك الوزير- يعنون ابن الفرات- وأنت مسلم إليه، فسكنت قليلاً، وجاؤوني بخفيّ، وطيلسانيّ، وعمامتي، فلبست، وأخرجت، فجي بي إلى الدار التي كانت يرسم ابن الفرات في دار الخليفة، فلمّا رأيته، أقبل يخاطبني بعظم جنايتي وخطأي، وأنا أقرّ بذلك، وأستقبل وأتنصل.

ثمّ قال لي: قد وهب لي أمير المؤمنين ذنبك، وابتعت منه جرمك بمائة ألف دينار،

ألزمتك إياها...

فقال: احملوه إلى داري.

قال: فأخذت، وحملت إلى داره، فقرّر أمري على مائة ألف دينار، على أن أؤدي نصفها عاجلاً، ويصير النصف في حكم الباطل على رسم المصادرات. فلما صرت في دار ابن الفرات، وسّع عليّ في المطعم، والمشرّب، والملبس، وأدخلت الحمام، ورقّعت، وأكرمت.

فرأيت، لما خرجت من الحمام، وجهي في المرأة، فإذا طاقات شعر قد ابيضّت في مقدّم لحيتي، فإذا أنا قد شبت في تلك الليلة الواحدة.

قال: وأدبت المال، ثمّ نظر لي ابن الفرات بالباقي وصرفني إلى منزلي، وأقمت في بيتي سنين، وبابي مسدود، لا أرى أحداً...^(٤)

يكشف النص عن طبيعة السياسة القمعية وما تمارسه أجهزة الدولة الإيديولوجية التي وظفها الخلفاء العباسيين لقمع الهويات المعارضة لهم والرافضة لحكمهم المستبد. وهذا ما واجهوا به خصومهم فكان مصيرهم إما القتل أو التوبة والرجوع إلى طاعة الخليفة، بعد أن أعلنوا نكثهم لبيعتهم وخلع طاعته، لإيمانهم المطلق بعد صلاحية المقتدر للإمامة وسياسة الملك، وهذا ما كان جواب أبو المثني القاضي بعد أن " قالوا له: إنّ أمير المؤمنين، قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر، فإن تبتّ رددناك إلى محبسك، وإلا قتلناك.

فقال: أعوذ بالله من الكفر، ما أتيت ما يوجب الكفر"^(٥).

فكان نكث البيعة والخروج عن طاعة الخلفية كفر وإلحاد بنظره توجب التوبة على صاحبها، أو القتل، بعد أن يقوم بمصادرة ثروته الخاصة لصالحه وهذا ما يؤكده قول محمد بن داود بعد أن "أضجع ليذبح، فقال: يا قوم، ذبحاً كما تذبح الشاة، أين المصادرات، أين أنتم عن أموالني أفترني بها نفسي؟ عليّ كذا وكذا..."^(٦)، فيبعد أن طالبهم بأمواله التي استولوا عليها وقاموا بمصادرتها لم يلتفتوا إليه كونه خارج على طاعة الخليفة فأمر بقتله وقمع كل من يحاول نكث بيعته والخروج عن طاعته. فكان القتل هو النهاية المتوقعة لكل المناهضين للدولة وسياساتها الإيديولوجية، إلا من أعلن توبته وخضوعه لها سيكون في أمان من بطشها، إلا أنه لم يسلم من ممارساتها الإقصائية ووضعته تحت أنظارها لتأمين مكره أولاً، ولتفرض عليه هيمنتها ثانياً، وتقمعه وغيره ثالثاً، وهذا مصير أبو عمر القاضي الذي حُبس لخروجه على المقتدر ونكث بيعته، إلا أنه قد رأى مقتل صاحبيه بعد رفضهما التوبة فكان مصيرهما القتل، فأعلن توبته قائلاً:

" وقالوا: يقول لك أمير المؤمنين، يا فاعل، يا صانع، ما حملك على نكث بيعتي؟

فقلت: الخطأ، وشقوة الجدّ، وأنا تائب إلى الله عزّ وجلّ من هذا الذنب"^(٧). إلا أنه لم يتخلص من العقوبة، فلم يكن إعلان التوبة والخضوع للخليفة كافياً، فقد فرض عليه دفع غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار جزاء نكث بيعته، ولم يكتفي الخليفة بهذه، بل عمد إلى وضعه تحت الإقامة الجبرية في بيته بعد أن دفع الغرامة إذ " قال: وأدبت المال، ثمّ نظر لي ابن الفرات بالباقي وصرفني إلى منزلي، وأقمت في بيتي سنين، وبابي مسدود، لا أرى أحداً..."^(٨) فوضعه تحت مراقبته ليكون تحت أنظاره أولاً، وليأمن خروجه عليه ثانياً، وإقصائه وقمعه ثالثاً، ليكون

مثالاً لغيره ولكل من يحاول الخروج عن طاعة الخليفة ونكث بيعته، وإعلان رفضه للدولة وسياساتها التي أصبحت لا تحقق طموحه، فيكون خروجه عليها ومناهضته لها سعيًا منه إلى تغيير الحكم وتحقيق ما يتطلع إليه.

المحور الثاني: هيمنة المركز وتشظي الهوية.

إلا أن الدولة تسعى إلى قمع الهويات الرافضة لها من خلال أجهزتها الإيديولوجية التي توظفها بطرائق وأساليب مختلفة لفرض هيمنتها والانفراد بالسلطة بلجوتها إلى ممارسة العنف واستخدام القوة تارة، والإيديولوجيا تارة أخرى بعد أن تلجأ إلى الدين تبريراً منها لممارساتها التعسفية، وقناعاً تخفي خلفه لخداع خصومها وهيمنة عليهم. إلا أن أجهزة الدولة كانت على نوعين يمكن التمييز بينهما من خلال وظائفهما المتمثلة في دعم الدولة وفرض هيمنتها الإيديولوجية.

إذ يميز التوسير بين نوعين من أجهزة الدولة وهما:

- أجهزة الدولة القمعية^(٩) : وهي عماد الدولة وقوتها في تطبيق أنظمتها السياسية وفرض هيمنتها على الأفراد وقمعهم بعد لجوتها إلى ممارسة العنف باستخدامها للقوة في قمع الحركات المناهضة لسياساتها الإقصائية بحق الطبقات الاجتماعية القابعة تحت حكم هذه الدولة ونظامها الإيديولوجي.

- وأما أجهزة الدولة الإيديولوجية: وهي نوع آخر من أنواع القمع، ولكن هذه المرة من خلال توظيف الإيديولوجيا أو اللاوعي الاجتماعي للسيطرة على الأفراد وإخضاعهم إيديولوجيا لأنظمة الدولة وسياساتها الإيديولوجية؛ لأن أجهزة الدولة القمعية تُعيد إنتاج السلطة بواسطة العنف المادي والقمع المكشوف، في حين تؤدي أجهزة الدولة الإيديولوجية الوظيفة نفسها ولكن بطرائق وأساليب مختلفة كأن تكون بأدوات ناعمة، وبقمع مخفف أو مقنع، إلا أن الجهازين هما عماد الدولة ووسيلتها في السيطرة على الطبقات الاجتماعية وممارسة الهيمنة على أفرادها والتحكم بهم من أجل ضمان استمرارها^(١٠) في الحكم؛ إلا أن هذه السياسات القمعية وأساليب الترهيب والقتل وغيرها التي طبقها العباسيون من أجل حفاظهم على الحكم واستمرارهم فيه، لم تدم طويلاً، ولا سيما بعد أن ضعفت الدولة أمام السلطة التي كانت بيد الآخر الذي سعى إلى تأسيس هويته القومية على حساب الهوية القومية للعرب وقمعهم، إذ سرعان ما ظهرت حركات تمرد هنا وهناك، مما حرك الشعور القومي عند العامة بضرورة تغيير نظام الحكم الذي لم يعد قادراً على تحقيق طموحهم وما يتطلعون إليه بعد أن أصبح تحت سيطرة الآخر، الأمر الذي أدى إلى تمرد بعض الأفراد على هذا النظام ومحاولة تغييره. إلا أن هذا الوضع الجديد جعل العباسيين يبحثون عن طريقة أخرى من خلال أجهزتهم الإيديولوجية، تمكنهم من قمع هذه الهويات المتمردة واحتوائها، ولكن بطرائق وأساليب مقنعة من أجل السيطرة على الأفراد إرادياً ونيل ولائهم ومن ثم ممارسة هيمنتها عليهم، وهذا ما يؤكد هذا الخبر الذي أورده التتوخي، ليكشف فيه عن لجوء الخلفاء العباسيين إلى بعض الشخصيات الدينية المؤثرة في الأفراد من أجل تغيير

قناعاتهم تجاه الخليفة ونظامه السياسي، قائلاً: " قال الربيع: لما حبس المهديّ موسى بن جعفر وضيق عليه، رأى في النوم علياً عليه الصلاة والسلام وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢) قال الربيع: فأرسل إليّ ليلاً فراعني ذلك، فجنته فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان أحسنّ الناس صوتاً. فعرفني خبر الرؤيا وقال: عليّ بموسى بن جعفر، فجنته به، فعانقه وأجلسه إلى جنبه وقال: يا أبا الحسن إني رأيت أمير المؤمنين قرأ عليّ كذا، أفتمنّني أن تخرج عليّ أو على أحد من ولدي؟ فقال: والله ما ذاك من شأني. قال: صدقت، ولكن من يمنع أنصارك من الخروج عليّ؟، ولكنني سأتدبر أمركم جميعاً!، فقال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورّدّه إلى أهله إلى المدينة، ولا تفشي سره، وأقتل كل من يريد بقاءه هنا أو يخرج لنصرته علينا. فقال: الربيع فأحكمت أمره ليلاً لكي لا يعرف خبره أحد من أنصاره ومحبيه فيثوروا لأجله، فما أصبح إلا وهو متوجّهاً على الطريق إلى المدينة".^(١١)

إنّ لجوء الخليفة إلى توظيف شخصية الإمام علي^{عليه السلام} في رؤياه ما هي إلا أحد الاستراتيجيات التي يحاول من خلالها أن يبرر موقفه تجاه موسى بن جعفر وأنصاره الذين شكلوا خطراً عليه، فأراد أن يأمن شرهم بطريقة أو أخرى تحفظ له هيئته أمام حاشيته أولاً، ليقمع سخط العامة ثانياً، فكانت الرؤيا ملاذه الأخير في تبرير موقفه وعدائه الإيديولوجي لموسى بن جعفر واتباعه بعد أن وظيف شخصية الإمام علي^{عليه السلام} لتكون واسطة في إطلاق موسى بن جعفر، فكان استدعاء شخصية الإمام علي^{عليه السلام} من قبل المهدي له أثره المباشر في تغيير وجهات النظر تجاه المهدي وما قام به من إقصاء لموسى بن جعفر، إذ حاول أن يؤكد صلة الرحم التي بينهما من خلال النص القرآني "فكان للديني مجاله المقدس، وللسياسي مجاله الدنيوي، فأتاح ذلك إدارة الصراع بديناميكية وحركية فعالة دون الانغلاق تحت سيف المقدس"^(١٢)، فأدى النص الديني دوره حيث أثر في الخليفة فأمر بإطلاق سراح موسى بن جعفر، إلا أنه كان له مجاله السياسي الذي تمكن من خلاله إقصاء الأخير وإبعاده عن الساحة السياسية، بعد أن أخذ منه عهداً بعد الخروج عليه فقال له: "أفتؤمنني أن تخرج عليّ أو على أحد من ولدي؟ فقال: والله ما ذاك من شأني. قال: صدقت، ولكن من يمنع أنصارك من الخروج عليّ؟، ولكنني سأتدبر أمركم جميعاً! فقال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورّدّه إلى أهله إلى المدينة، ولا تفشي سره، وأقتل كل من يريد بقاءه هنا أو يخرج لنصرته علينا."^(١٣) فبعد أن تأكد من عدم خروجه عليه أو على أحد من ولده تخلّى عن قتله وأمر بنفيه إلى المدينة ليلاً، بهذه الطريقة تمكن المهدي بعد أن وظف أجهزة الدولة الإيديولوجية من قمع الهويات المناهضة له؛ نتيجة لسياساته الإقصائية في الحكم.

إلا أن العباسيين قد اتخذوا من القمع وسيلة للقضاء على خصومهم السياسيين، ولاسيما من الطالبين الذين تعرضوا للإقصاء والتهميش من قبل بعض الخلفاء في العصر العباسي؛ نتيجة لمعارضتهم السياسية لأنظمة الحكم الإيديولوجية القائمة على الإقصاء والتهميش، فكان للطالبين دورهم الكبير في إسقاط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التي سرعان ما خرجوا عليها معارضين لسياساتها، ولاسيما بعد أن انفرد بني العباس بالسلطة وتفرّيبهم للعناصر الأجنبية واعتمادهم عليها في إدارة الدولة، إذ رأت هذه العناصر في إقصاء العباسيين للهوية العربية،

فضلاً عن اختلافهم في الرأي والعقيدة مع كثير من الفرق الإسلامية أدى إلى تشظي الهوية القومية للعرب الذين تراجعوا " أمام هذا الوضع الجديد إلى بواديهم وأصبحوا هناك حطباء لنار كل فتنة تقوم ضد الدولة" (١٤)، الأمر الذي منح هذه العناصر فرصة كبيرة في تثبيت كياناتها وتقوية نفوذها من خلال تغلغلها في مراكز الدولة الحساسة تمهيداً لاستيلائها على السلطة بهدف إعادة إنتاج الهوية القومية لهذه العناصر سواء أكانت فارسية أم تركية على حساب الهوية القومية العربية، وهذا ما حدث بالفعل بعد أن تمكنت هذه العناصر من الاستيلاء على السلطة وفرض هيمنتها على الخليفة وتقييد نفوذه بعد أن سحبوا صلاحياته فلم يعد قادراً على تغيير نظام الحكم الذي أصبح لا يحقق رغبات الإنسان العربي وتطلعاته، مما أدى إلى ظهور كثير الفرق الإسلامية المعارضة، فضلاً عن رفض العامة لهذا الوضع الذي وجدوا أنفسهم عليه، فكان هدفهم تغيير نظام الحكم، إلا أن العباسيين قد تمكنوا من قمع هذه الحركات المعارضة لهم من أجل استمرارهم في الحكم، حتى أصبح القمع وسيلة لتطبيق سياساتهم الإيديولوجية على الطبقات الاجتماعية، وهذا ما يؤكد هذا الخبر الذي أورده الأصفهاني قائلاً: "حدثني أحمد بن عبد الله بن عمار قال: حدثني النوفلي عن أبيه قال: كان الرشيد مغرماً بالمسألة عن أمر آل أبي طالب وعمن له ذكر ونباهة منهم فسأل يوماً الفضل بن يحيى هل سمعت بخراسان ذكراً لأحد منهم قال: لا والله ولقد جهدت فما ذكر لي أحد منهم إلا سمعت رجلاً يقول وذكر موضعاً فقال: ينزل فيه عبد الله بن الحسن بن علي ولم يزد على هذا.

فوجه الرشيد من وقته إلى المدينة فأخذ فجئ به فلما أدخل عليه قال له: بلغني أنك تجمع الزيدية وتدعوهم إلى الخروج معك.

قال: قال نشدتك بالله يا أمير المؤمنين في دمي فوالله ما أنا من هذه الطبقة ولا لي فيهم ذكر وإن أصحاب هذا الشأن بخلافي أنا غلام نشأت بالمدينة وفي صحاريها أسعى على قدمي وأتصيد بالبواشيق ما هممت بغير ذلك قط.

قال: صدقت ولكني أنزلك داراً وأوكل بك رجلاً واحداً يكون معك ولا يحجبك أحداً يدخل عليك...

فقال: يا أمير المؤمنين نشدتك بالله في دمي فوالله لنن فعلت ذلك بي لا وسوسن وليذهبن عقلي.

فلم يقبل ذلك منه وحبسه فلم يزل يحتال لأن تصل رقعته إلى الرشيد حتى قدر على ذلك فأنفذ إليه رقعة مختومة فيها كل كلام قبيح وكل شتم فلما قرأها طرحها وقال: قد ضاق صدر هذا الفتى فهو يتعرض للقتل وما يحملني فعله ذلك على قتله. ثم دعا جعفر بن يحيى فأمره أن يحوله إليه ويوسع في محبسه.

فلما كان يوم غد وهو يوم نيروز قدمه جعفر بن يحيى فضرب عنقه وغسل رأسه وجعله في منديل وأهداه إلى الرشيد مع هدايا فقبلها وقدمت إليه فلما نظر إلى الرأس أفضعه فقال له: ويحك لم فعلت هذا؟

قال: لإقدامه على ما كتب به إلى أمير المؤمنين وبسط يده ولسانه بما بسطهما.
قال: ويحك فقتلك إياه بغير أمري أعظم من فعله. ثم أمر بغسله ودفنه.

فلما كان من أمره وما كان في أمر جعفر قال لمسرور: إذا أردت قتله فقل له هذا بعد الله بن الحسن بن عمي الذي قتلته بغير أمري. فقالها مسرور عند قتله إياه.^(١٥) يكشف النص سياسة الرشيد القمعية التي واجه بها خصومه، ولا سيما من العلويين على الرغم من صلة الرحم التي تربطهما معا، إلا أن العباسيين كان هدفهم الانفراد بالسلطة وتشكيل هويتهم العنصرية على حساب الهويات الأخرى، إذ قام الرشيد بقمع عبدالله بن الحسن وحبسه في دار ووضعه تحت الإقامة الجبرية بعد أن سأله عن أنصاره من الزيدية ونفى علاقته بهم فقال له: " قال: صدقت ولكني أنزلك داراً وأوكل بك رجلاً واحداً يكون معك ولا يحجبك أحداً يدخل عليك..."^(١٦) فهو لم يمنع الآخرين من زيارته ليتسنى له معرفة أخبار أصحابه بعد أن أوكل أحد رجاله بمراقبته ليتمكن من القبض عليهم والقضاء على حركتهم.

ويعد النص من جهة أخرى وثيقة رسمية تؤكد على ضعف الخلافة العباسية وتراجع سلطة الخليفة وتقهرها أمام سلطة الآخر الأجنبي الذي أصبح صاحب السلطة العليا في إدارة شؤون الدولة، إذ وصل الأمر أن يقوم جعفر بن يحيى البرمكي وزير الرشيد بقتل عبد الله بن الحسن وتقديم رأسه للرشيد من غير أن يأمره بقتله، وهنا فقد بلغ نفوذ الآخر وتسلط هويته وهيمنتها على الهوية القومية العربية أعلى مراتبها في التسلط والهيمنة. إلا أن الرشيد حاول استعادة موقعه في إدارة الدولة والتمتع بصلاحياته، فأدرك أنه لم يتمكن من ذلك إلا بقمعه للبرامكة الذين استغلوا تقربهم منه بعد أن قلدهم مناصب عليا في إدارة الدولة وشؤونها، فقاموا باستغلالها لمصالحهم السياسية خدمة لهويتهم القومية على حساب الهوية العربية.

إلا أن الرشيد أحسن بخطر البرامكة فسعى للتخلص من سيطرتهم بهدف استعادة السلطة وهيبتها أمام الأنظار، فقتل جعفر بن يحيى سنة ٢٨٧هـ، وهما قادمان من مكة في آخر شهر محرم، أمر بقتله فأحيط به ليلاً، ودخل عليه مسرور بعد أن أوكل إليه الرشيد أمر قتله، وكان جعفر مشغولاً في لهوه، فأخرجه إخراجاً عنيفاً، يقوده، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرشيد، وقبده بقيد حمار، ثم أمر بضرب عنقه، ثم أمر الرشيد بجثته ففصلت على ثلاثة جذوع، رأسه في جذع على الجسر، مستقبل الصراة، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائر جسده على جذع على آخر الجسر الثاني ممّا يلي باب بغداد، فلما دنا الرشيد من باب بغداد، استقبله وجه جعفر مستقبلاً الشمس، فأربد وجه الرشيد، واغضى بصره، وأمر بالنصّاحات، فنضح عليه، حتى احترق عن آخره^(١٧) فلم يتردد بقتل البرامكة والتكيد بهم على الرغم من علو مكانتهم عنده، فضلاً عن الأعمال القيمة التي أسدوها للدولة خلال مدة وزارتهم للرشيد التي استمرت سبعة عشر سنة، إلا أنه أراد التخلص منهم وقمع غيرهم بهدف منعهم من التدخل "في شؤون الدولة والتحكم في مراكز [القوة و] النفوذ"^(١٨) في إدارة الدولة، فأقصى كل من تسول له نفسه من الوزراء أو قواد الجيش^(*) أو العمال في الولايات والأمصار الأخرى التجاوز على مؤسسة الخلافة ومخالفة أوامرها والتعدي على صلاحياته التي منحها له الخليفة؛ نتيجة لاستغلاله للسلطة

وسوء توظيفها خدمة لمصالحه السياسية التي من شأنها أن تضر بأمن الدولة واستقرارها. إلا أن مقتل عبدالله بن الحسن كان من شأنه أن يؤدي إلى قيام ثورة على الرشيد قد تطيح بنظام حكمه، إلا أنه أدرك خطر فعله فسعى إلى قمع الأصوات المطالبة بدم عبدالله بن الحسن بقتله لجعفر بن يحيى، من جهة، وتخلص من سيطرة البرامكة من جهة أخرى، بهذه الطريقة تمكن من إعادة إنتاج هوية الدولة وفرض هيمنتها على الهويات المناهضة لها والساعية إلى تغيير نظام الحكم في الدولة العباسية والاستيلاء على السلطة.

وقد سعى بعض الخلفاء إلى سياسية أخرى في قمع الحركات المعارضة لهم، إذ لجأ المأمون إلى قلب المعدلة لصالحه بعد أن ظهر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وتعاضم أمره بين العامة وأتف حوله أنصاره، الأمر الذي جعل المأمون يبحث عن خطة جديدة يمكن من خلالها تغيير وجهة نظر العامة له ولسياساته الجديدة التي يسعى من وراءها إلى سحب البساط من تحت أقدام الإمام عليه السلام بعد أن ينال رضا الجماعات المؤيدة له، ليتسنى له القضاء عليه بسهولة، وهذا ما تكشف هذه الحكاية التي أوردها الأصفهاني قائلاً: " أخبرني ببعضه علي بن الحسين بن علي بن حمزة عن عمه محمد بن علي بن حمزة العلوي وأخبرني بأشياء منه أحمد بن محمد بن سعيد قال: حدثنا يحيى بن الحسن العلوي وجمعت أخبارهم:

أن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة: وفيهم علي بن موسى الرضا فأخذ بهم على طريق البصرة حتى جاؤوه بهم وكان المتولي لأشخاصهم المعروف بالجلودي من أهل خراسان فقدم بهم على المأمون فأنزلهم داراً وأنزل علي بن موسى الرضا داراً.

ووجه إلى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد له بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك ففعل واجتمعوا بحضرته فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما في إخراج الأمر من أهله عليه.

فقال له: إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع وما أعلم أحمد أفضل من هذا الرجل. فاجتمعوا معه على ما أراد فأرسلهما إلى علي بن موسى فرضا عليه ذلك فأبى فلم يزل به وهو يأبى ذلك ويمتنع منه إلى أن قال له أحدهما: إن فعلت وإلا فعلنا بك وصنعنا وتهده ثم قال له أحدهما: والله أمرني بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد.

ثم دعا به المأمون فخطبه في ذلك فامتنع فقال له قولاً شبيها بالتهديد ثم قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهم جدك وقال: من خالف فأضربوا عنقه ولا بد من قبول ذلك فأجابه علي بن موسى إلى ما ألتمس.

ثم جلس المأمون في يوم الخميس وخرج الفضل بن سهل فأعلم الناس برأي المأمون في علي بن موسى وأنه ولاه عهده وسماه الرضا. وأمرهم بلبس الخضرة والعود لبيعته في الخميس الآخر على أن يأخذوا رزق سنة فلما كان ذلك اليوم ركب الناس من القواد والقضاة وغيرهم من الناس في الخضرة وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفرشه. وأجلس الرضا عليهما في الخضرة وعليه عمامة وسيف. ثم أمر ابنه العباس بن المأمون فبايع له أول الناس فرفع الرضا يده فتلقي بظهرها وجه نفسه وبيطنها وجوههم.

فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة. فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا كان يبايع فبايعه الناس ووضعت البدر: وقامت الخطباء والشعراء فجعلوا يذكرون فضل علي بن موسى وما كان من المأمون في أمره. ثم دعا أبو عباد بالعباس بن المأمون فوثب فدنا من أبيه فقبل يده حتى قرب من المأمون ولم يقبل يده ثم مضى فأخذ جازته وناداه المأمون ارجع يا أبا جعفر إلى مجلسك فرجع. ثم جعل أبو عباد يدعو بعلي وعباسي فيقضيان جوائزهما حتى نفذت الأموال. ثم قال المأمون للرضا قم فاخطب الناس وتكلم فيهم. فقل بعد حمد اله والثناء عليه: إن لنا عليكم حقاً برسول الله صلى الله عليه وآله ولكم علينا حق به فإذا أدريتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم.

ولم يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس.

وأمر المأمون فضربت له الدراهم وطبع عليها اسمه...

قال: وزوج المأمون ابنته أم الفضل محمد بن علي بن موسى... واتعل الرضا علته التي مات فيها... ولم يزل علياً حتى مات.

واختلف في أمر وفاته وكيف كان سبب السم الذي سقيه فذكر محمد بن علي بن حمزة أن المنصور بن بشير ذكر عن أخيه عبدالله بن بشير أن المأمون أمره أن يطول أظفاره ففعل ثم أخرج إليه شيئاً يشبه التمر الهندي وقال له: افركه واعجنه جميعاً ثم دخل على الرضا فقال له: ما خبرك قال أرجو أن أكون صالحاً.

فقال له: هل جاعك أحد المترفين اليوم قال: لا فغضب وصاح على غلمانة وقال له: فخذ ماء الرمان فإنه لا يستغني عنه.

ثم دعا برمان فأعطاه عبدالله بن بشير وقال له: اعصر ماءه بيدك ففعل وسقاه المأمون الرضا بيده فشربه فكان ذلك سبب وفاته ولم يلبث إلا يومين حتى مات. ولما توفي الرضا لم يظهر المأمون موته في وقته وتركه يوماً وليلة ثم وجه إلى محمد بن جعفر بن محمد وجماعة من آل أبي طالب. فلما أحضرهم وأراهم إياه صحيح الجسد لا أثر به... وخرج مع جنازته يحملها حتى أتى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه هناك إلى جانب هارون الرشيد.^(١٩)

إن لجوء السلطة السياسية إلى احتواء السلطة الدينية والاندماج معها في هوية واحدة يُعد حدثاً طارئاً على الساحة السياسية للدولة العباسية، وخطة جديدة لفرض الهيمنة، من خلال السلطة الدينية وما تستوجبه من طاعة وولاء مطلق، وهذا ما أدركه المأمون فسعى إلى تطبيقه فتمكن بهذه الخطوة أن يرسم سياسة مغايرة محاولاً تطبيقها عبر أجهزة الدولة الإيديولوجية ليفرض سيطرته على القوى المعارضة للدولة العباسية وسياساتها الرامية إلى إقصاء الآخر وقمعه بطريقة أو أخرى.

إذ اتخذ المأمون من شخصية الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قناعاً يتوارى خلفه ليتمتع بالسلطة سواء أكانت السياسية أم الدينية؛ لذلك أراد لشخصية الإمام عليه السلام أن تكون من "الشخصيات التي تحمي هذه السلطة"^(٢٠) وهي قابعة تحت حكمها وخاضعة لإرادتها، فلم تكن بيعته للإمام عليه السلام إلا محاولة لنيل الولاء من قبل المعارضة، على الرغم من رفض الإمام عليه السلام لفكرته، إلا أنه قد هدد بضرب عنقه بعد أن قال له: "قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة

أحدهم جدك وقال: من خالف فأضربوا عنقه ولا بد من قبول ذلك فأجابه علي بن موسى إلى ما ألتبس^(٢١)، حيث قدم المأمون حجتة الدينية التي تتيح له ضرب عنقه في حال رفضه لفكرته التي تقضي بتسليمه لولاية العهد، إلا أنه قد أعد العدة لقمعه والقضاء عليه فدبر له مكيده لقتله ففسد إليه السم، ليواصل بعدها خداعه للعامة، ولاسيما الموالين للإمام عليه السلام بدفنه إلى جانب هارون الرشيد، فتمكن مرة أخرى من خداعهم وتغيير وجهة نظرهم له ولسياسته فنال الولاء والطاعة معاً، ليفرد بعدها بالدولة وإدارتها متمتعاً في الوقت نفسه بالسلطتين السياسية والدينية، ساعياً إلى إعادة إنتاج هوية الدولة المتسلطة لتفرض هيمنتها على الهويات الأخرى وقمعها.

الخاتمة:

تعد السلطة علاقة قوى، لأن كل علاقات القوى هي بالأساس علاقة سلطة، كونها بنية أفعال وعلاقات اجتماعية مؤدجة بين الحاكم والمحكوم، فضلاً عن أن القوة لا يمكن أن تكون إلا شكلاً من أشكال ممارسة السلطة وتطبيق إجراءاتها التعسفية بحق أفراد المجتمع.

الهوامش:

- ١- ظ : الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مجموعة من الباحثين : ٢٩٩.
- ٢- الطاغية – دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي ، إمام عبد الفتاح : ٢٢-٣٠ ، و ظ : النظم السياسية ، ثروت بدوي : ١٢٦.
- ٣- ظ : الطاغية – دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي : ١٤.
- ٤- الفرج بعد الشدة : ٢ / ح ١٧٩ : ١٣١-١٣٦.
- ٥- الفرج بعد الشدة : ٢ / ح ١٧٩ : ١٣٣.
- ٦- م ، ن : ١٣٢.
- ٧- الفرج بعد الشدة : ٢ / ح ١٧٩ : ١٣٤.
- ٨- م ، ن : ١٣٦.
- ٩- ظ : الهوية والسرد، نادر كاظم : ٧٩.
- ١٠ ظ : الهوية والسرد : ٨٠.
- ١١- المجالس والمسائرات، القاضي النعمان بن محمد : ١٣ / ٢٨٥-٢٨٧، لا بد أن نشير هنا إلى أن هذا النص قد أورده التتوخي في كتابه الفرج بعد الشدة، ظ : البحث ٣٢، ولكن برواية تكاد تكون شبه مختلفة عن هذه التي نقلها القاضي النعمان في كتابه.
- ١٢- سلطة لنص ، قراءات في النص الديني، عبدالهادي عبد الرحمن : ٦٣-٦٤.
- ١٣- المجالس والمسائرات : ١٣ / ٢٨٦.
- ١٤- المثقفون والسلطة في الحضارة العربية(الدولة البويهية إنموذجاً) : ١ / ٣٧.
- ١٥- مقاتل الطالبين ، الأصفهاني : ٣٠٩-٣١٠.
- ١٦- م ، ن : ٣١٠.

- ١٧- الفرج بعد الشدة: ٣٦٦/١.
- ١٨- المتفقون والسلطة في الحضارة العربية: ٣٧/١.
- (*) بعد سيطرة العناصر الأجنبية على السلطة، ولاسيما الأتراك وظهور ما يعرف بسياسة التنريك، الأمر الذي أدى إلى تحرك الشعور القومي عند العرب، فحاولوا الوقوف ضد هذه السياسة ومناهضة الخلفاء الذين ساعدوا على تطبيقها، إذ سعى القائد عفيف بن عنبسة إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الخليفة العباسي المعتصم أثناء حرب عمورية، ومبايعة العباس بن المأمون= بالخلافة، غير أن أمره قد انكشف، فأمر المعتصم بقتله، وأصدر أمراً آخر يقضي بإسقاط العرب من العطاء ومنعهم نهائياً من الانخراط في الجندية، وهذا إقصاء آخر قد تعرضت له الهوية القومية العربية أدى إلى تراجعها أمام هوية الآخر وتسلطه وعلو نفوذه، ط: المتفقون والسلطة في الحضارة العربية: ٣٧/١.
- ١٩- مقاتل الطالبين: ٣٤٨-٣٥١.
- ٢٠ المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، فاضل ثامر: ٥٣.
- ٢١- مقاتل الطالبين: ٣٤٩.

المصادر والمراجع:

- سلطة النص - قراءات في توظيف النص الديني، عبد الهادي عبد الرحمن، دار الانتشار العربي، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م.
- الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، إمام عبد الفتاح، عالم المعرفة للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٤م.
- الفرج بعد الشدة، لأبي علي المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: عيود الشالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٥م.
- المتفقون والسلطة في الحضارة العربية، مصطفى التواتي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م، ط٢، ٢٠٠٤م.
- المجالس والمسائرات، للقاضي النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد، تحقيق: الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، دار المنتظر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، تحقيق: كاظم المظفر، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، إيران، ط٢، ١٩٦٥م.
- المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي فاضل ثامر، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- الهوية والسرد- دراسات في النظرية والنقد الثقافي، د. نادر كاظم، دار الفراشة للنشر والتوزيع- الكويت، ط٢، ٢٠١٦م.
- الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مجموعة من الباحثين، تحرير وتقديم: رياض زكي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣م.